# الحياة الزوجية

## (٥)

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * (سورة الروم ٣٠ — ٢١)

### ﴿ الركن الثاني من أركان هذه الحياة — المودة ﴾

تكلمنا في المقالات الاربع السابقة من هذا البحث عن الركن الأول من أركان الحياة الزوجية وهو سكون كل من الزوجين الى الآخر وبينا انه يتوقف على حسن اختيار كل منهما للآخر وهذا الركن خاص بالزوجين عليه تبنى سعادتهما وهناء معيشتهما وتحققه شرط لتحقق الركنين الآخرين أو كمالهما وهما المودة والرحمة وبتحقق الأركان الثلاثة تكمل فائدة هذه الحياة الفائدة التي أرشدنا الله تعالى الى طلبها منه بقوله في صفات المؤمنين « والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما » (الفرقان ٢٥ — ٧٤)

أما الركن الثاني وهو المودة فليس خاصاً بالزوجين لأن المودة تصل بين عشيرتيهما بما تصل به بينهما ولذلك لم يقل « لتسكنوا اليها وتودوها » بل قال « وجعل بينكم مودة » والخطاب للناس لا للازواج خاصة أي انه جعل من مقتضى الفطرة البشرية التوادّ بينكم بسبب الزوجية بين الزوجين ومن يتصل بهما بلحمة القرابة والنسب كما هو معروف بالاختبار فيمن سلمت فطرتهم من الفساد، وعرفوا قيمة الحياة الاجتماعية فعاشوا عيشة الاجتماع لا عيشة الأفراد، وما زال البشر يعدون المصاهرة من أسباب المصبية بين البيوت والعشائر والقبائل بل نرى الامراء والملوك يحاولون بمصاهرة بعضهم بعضاً التواد والتناصر بين دولهم، أو تخفيف العداء والتنافر بين أممهم، حتى انهم ينبذون لذلك مذاهبهم الدينية كما فعلت الاميرة الجرمانية التي تزوج بها قيصر روسيا — فهذه سنة من سنن الفطرة عرفها البدو والحضر وجرى عليها أدنى القبائل همجية وأعلى الشعوب مدنية، وتنكبها أناس مذبذبون كاد يخرج بهم فساد الفطرة عن البشرية،

نرى ونسمع في هؤلاء الذين خلقوا على صورة الانسان من التخاصم والتنازع مع أصهارهم واختانهم مالا نرى نظيره ولا نسمع بمثله في أهل الاضغان الموروثة والاحقاد المتسلسلة، يرى أحدهم نعمة الآخر قذى في عينه وحرجاً في صدره، ويعد شرفه اذا ارتفع خافضاً لقدره، فهو أنكى حاسديه، وأنكأ جارحيه، وأول المتربصين للوثبة عليه.

لم يقف تأثير اعتلال الفطرة في نفوس هؤلاء عند تنكيث المفتول، وتشتيت الملموم وتقطيع الموصول، بل أوغل في النفس الى مواضع الشعور بالحاجة الى الاعتصام، والاحساس برزايا الانفصام، فتبخددت الاعصاب، وانطمست البصائر والالباب، وانتكس الطبع، وانعكس الوضع، فصارت أسباب المودة والالتئام، عللا للتباغض والانقسام، وانقلبت معارج الشرف والرفعة، مدارج للتسفل والضعة، وأمسى ما يكتسب لاجله يكتسب به، وما يتعزز به يعتز عليه، ولا يعتد بشيء من هذا خروجاً عن سنن الفطرة، ولا اعتداء لحدود الشريعة، وانما يحسب من أمور الحزم، وطرق القيام بالمصالح.

لو أحب الأزواج أنفسهم حباً صادقاً وسكن بعضهم الى بعض ذلك السكون الطبيعي لوادّ كل منهما الآخر ووادّ لأجله أهله وعشيرته بلا تكلف ولا تعمل وأحس بأن قوتهم قوته وشرفهم مزيد في شرفه وكثرة مالهم زيادة في نعم الله تعالى عليه

لو عرف الأزواج معنى الحياة الزوجية وقيمتها واتفق ان كان كل منهما على غير ما يحب الآخر ويهوى فلم تسكن اليه نفسه ذلك السكون المطلوب لتودّد كل منهما للآخر تودداً لعله يصيب بالتكلف والصنعة بعض ما فاته بالسجية والفطرة فان التودّد مودة متكلفة أو صورة للود الحقيقي فله جميع فوائد المودة الصورية وانما ينقصه روحها وهو ما فيها أريحية النفس وأنسها بالفضيلة ولذتها واغتباطها بها وقد ينتهي التودد بشيء من هذا ومن فاته كمال المنفعة بشيء فليس من الرأي ولا الكياسة أن يفوته كل جزء من أجزائه وكل أثر من آثاره وهو قادر على ادراكه فان بلغ النفور في قلبي الزوجين مبلغاً يعز معه التودد ويتعذر التجمل فالواجب أن يتفرقا بالمعروف والاحسان كما اجتمعا بهذا القصد لانهما تحققا حينئذ انهما لا

بقيام حدود الله تعالى « وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته »

من المودة أن يحب كل من الزوجين من يحب الآخر من أهله وعشيرته وأصدقائه فيسر لسرورهم ويستاء لاستيائهم ويتمنى لهم الخير والنعمة ويقوم بأداء حقوقهم بما جرى به العرف بين أمثالهم في ذلك والتودد هو عبارة عن هذا الأمر الاخير الذي هو عمل اختياري دون ماقبله لأنه من عمل القلب وهو شعور اضطراري يملك النفوس المستعدة له اذا هي آنست من هو أهله

النفوس المستعدة للود الصحيح والحب الخالص هي النفوس الزكية التي آوى حسن التربية منها الى سلامة الفطرة والنفوس المستأهلة لذلك هي النفوس المستعدة له فالمحبة والمودة من ثمرات المشاكلة في السجايا والصفات النفسية الفاضلة وأما المشاكلة في الصفات الرديئة والسجايا الخسيسة فهي لا تثمر حباً خالصاً ووداداً صادقاً ولكنها تثمر تودداً يقصد به كل من المتشاكلين الاستفادة من الآخر والتعاون معه على المقصد الذي وجههما اليه فساد الطبع فاذا أحسّ بالاستغناء عنه أو ظفر بمن يقوم مقامه فيما تواداّ لأجله ويكون الربح منه أكثر أو المكافأة له أقل فلا يلبث أن يتبدله به جذلا مسروراً . فأصحاب الأخلاق الفاسدة محرومون من ملكة المودة الصحيحة وهم في تودهم تجار مما كسون حتى ان فساد الفطرة يبلغ منهم أن يتجروا بعقد الزوجية ويعتدوا أزواجهم من سلع التجارة كما قدمنا في مبحث اختيار الأزواج

من التودد ما هو رذيلة وهو تودد الشطار العيارين الذي كشفنا عن حقيقة أمرهم آنفاً ومنه ماهو فضيلة وهو مايقصد به أداء الحقوق المعروفة للخلطاء والعشراء وتكلف القيام بآثار المودة كراهة الحرمان من خيرها الظاهر والباطن معاً ورجاء أن يصير التودد وداً والتحبب حباً فقد علم بالتجربة ان تكرار العمل يأثر خلق من الأخلاق تكلفاً قد ينتهي بأن يصير ملكة كما ورد في الحديث «والحلم بالتحلم» وقالت علية بنت المهدي

تحبب فان الحب داعية الحب وكم من بعيد الدار مستوجب القرب

وهذا النوع من التودد وهو الذي نأمر به من تزوجا فلم يجدا في أنفسهما سكوناً

يبعث كلا منهما على مودة الآخر ظاهرا و باطنا وهو ضرب من ضروب التربية القويمة

التربية في الكبر بعيدة المنال لا يقصد اليها الا أهل العلم ، ولا يصل منهم الا أولو العزم ، لأن الجاهل بعلم النفس وأخلاقها ، والشريعة وآدابها ، يقوده شعوره على غير هدى ، حتى يهوي به في مهاوي الردى ، فان كان زكي الطبع ، سليم القلب ، صبر على تجرع الغصص ، وتحمل المضض ، من معاشرة زوج لا يأنس به ، وقرين لا تسكن نفسه اليه ، حتى يقتله الصبر ، أو يخرج به الى الفساد والشر ، وان كان شرسا شكسا كانت حياته مع الزوج الآخر في تشاكس وتعاسر ، وتنافس وتنافر ، وأما العالم فاذا ابتلي بزوج لا تسكن اليه النفس ولا يخلص له الود ، فكان العدو الذي مامن صداقته بد ، فانه يتكلف اظهار صداقته ، واخفاء مقته وكراهته ، ليسلم من سوء المعاشرة ، ويستظهر على آفات المنافرة ، واذا كان واسع العلم بتربية النفوس ، وأثر المعاملة في تقلب القلوب ، صادق الارادة في تربية نفسه ، قوي العزيمة في تأديب وجدانه وحسه ، فانه يطمع في أن يكون التودد وداً ، والتطبع طبعاً ، ويعطى ما يطمع ، وينال ما يريد ، ومصداق هذا واضح في أهل العلم ، ومصداق ماقبله ظاهر في أهل الجهل ،

لك أن تقول اننا رأينا من المتعلمين والمتعلمات في هذه البلاد أزواجاً كان يرجى أن يكونوا حجة للعلم على الجهل بالعيشة الراضية ، وقصر كل من الزوجين طرفه على الآخر وقناعته بالاختصاص به لكمال سكون نفسه اليه واخلاصه في مودته ومحبته ، أو التودد اليه ومجاملته ، فبدا للناس منهم مالم يكونوا يحتسبون فلم تكد تنتهي أيام أعراسهم وليالي أفراحهم الا وقد نجمت بينهم قرون الفتنة ووقع عليهم طائر الشقاق ، وصاح بهم غراب الافتراق ، وياليته كان شقاقاً بكتمان ، وتسريحاً بإحسان ، وانما هداهم العلم الى أن يكيد أحدهم للآخر في المحاكم الشرعية ، ومنهم من قذف بهم التخاصم الى المحاكم الاهلية ،

ولي أن أجيب بأنك قد نسيت انني أعني بالعلم علم النفس وأخلاقها ، وعلم الشريعة وآدابها ، ومن تحدث عنهم لا يعرفون من ذلك شيئاً الا قليلا من الألفاظ المحفوظة ، والكلمات المتداولة ، التي يمليها الخيال ويلوكها اللسان ، وليس

لها في النفس منشأ يعرف ، ولا في الاعمال أثر يوصف ، كما هو شأن الأمة في ابان موتها توجد عندها صور من العلوم لا تطلب بها غايتها ، و بقايا من الرسوم لا تجني منها فائدتها ،

سكون الزوج الى الزوج سبب من أسباب سعادة الزوجين وهناء معيشتهما خاص بهما لا يشاركهما فيه أحد من الأقربين والمحبين وأما المودة بينهما فهي من أسباب سعادة عشيرتيهما أيضاً لأنها متعدية فهي مبعث التناصر والتوازر والتعاضد والتساند وبهذا تكون سبباً من أسباب سعادة الأمة المؤلفة من العشائر المؤلفة من الأزواج فهذا التأليف هو الذي يتكوّن منه مزاج الأمة فما يكون عليه من اعتدال وكمال يكون كمالا في بنية الأمة وقرة عين لمجموعها وما يطرأ عليه من فساد واعتلال يكون مرضاً للأمة يوردها موارد الهلكة

ان الانسان ليشعر بحاجته في كماله الى الامة وبحاجتها اليه في ذلك على قدر قوة معنى الانسانية فيه فأدنى أفراد الانسان حظاً من الانسانية لا يشعر بحاجته الى أحد ولا بحاجة أحد اليه الا من تقوم بهم شؤون حياته الشخصية فهو ينظر الى زوجه في البيت بالعين التي ينظر بها الى شريكه في السوق أو معامله في المقل وهي عين المبادلة في المنفعة وطلب الربح فاذا قدر على استبدال زوج مكان زوج يكون به حظه من التمتع أوفر ، أو مكافأته له بالنفقة وغيرها أقل ، فهو يقدم على ذلك فرحاً راضياً كما يستبدل عاملا بعامل وشريكا بشريك وأجيرا بأجير اذا رأى ان الجديد أنفع له من القديم . فمثل هذا لا يمتد وجوده الى ماوراء محيط جسمه فلا يتحقق فيه معنى الزوجية الذي هو عبارة عن حقيقة مؤلفة من فردين يعيشان بروح واحدة واذا لم يصل في سعة الوجود الى أن يكون زوجاً فلا شك انه لا يصل الى أن يكون عضواً من عشيرة يشعر بأن له بها حياة أعلى من حياته الفردية ووجودا أوسع من وجوده الشخصي واذا صغر عن هذا فانه يكون أصغر وأحقر من أن يشعر بمعنى الوجود القومي والحياة الملية التي ترفع صاحبها الى الشعور بأن كل عمل من أعماله يجب أن يكون نافعاً لأمة عظيمة وان مجموع أعمال العاملين في هذه الأمة يلحقه شرفه اذا كان شريفاً وتصيبه خسته اذا كان خسيساً وهذا هو شأن الانسان الكامل فمودة الأهل هي أول مجالي الانسانية الكاملة ولذلك

قال عليه الصلاة والسلام « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » رواه الترمذي من حديث عائشة وصححه ورواه أيضاً مصححاً من حديث أبي هريرة بلفظ « خياركم خياركم لنسائهم » وروى أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم من حديث أبي هريرة مرفوعاً « أكمل المؤمنين ايماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله »

ومن المودة بين الزوجين المهازحة والملاعبة ومن الرجال من يرى ان مفاكهة المرأة ومداعبتها مما يذهب بهابتها اياه واحتشامها له وينسى ان ترك ذلك يذهب بأنسها به وسكونها اليه وحبها اياه وان الحب ليغني عن المهابة والاحتشام ان صح ان المهازحة والملاعبة والمفاكهة والمداعبة لا تتفق معهما وما ذلك بصحيح فان أعظم الرجال قدراً من الانبياء والحكماء والملوك المهذبين كانوا يرضون نساءهم في البيوت ولا يتخوّن ذلك من مهابتهم واجلالهم شيئاً كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يمازح نساءه ويداعبهن وقال لجابر رضي الله عنه حين استأذنه في نكاح الثيب «هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك» والحديث في الصحيحين وكذلك كان يفعل (ص) حتى رووا انه كان يسابق عائشة في العدو (الجري الشديد) سابقها فسبقته ثم سابقها فسبقها فقال «هذه بتلك» والحديث عند أبي داود والنسائي وابن ماجه وسنده صحيح . ويؤثر عن عمر انه كان يقول « كل امرىء في بيته صبي » وفي الاحياء : وقال عمر رضي الله عنه مع خشونته «ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي فاذا التمسوا ماعنده وجدوه رجلا» :والمداعبة في البيت حد من تجاوزه ذهبت حشمته ، ومن قصر فيه ثقلت عشرته ، واستثقال المرأة للرجل مدرجة البلاء ، ومدعاة الشقاء ،

ومن المودة بين الزوجين الاعتدال في الغيرة ، بحيث تتحامى فيها الظنة والريبة ، فينبغي للرجل أن يؤذن امرأته بأوقاته خارج البيت أين يصرفها فان ذلك يعلي مكانه من قلبها ، ويمكن الثقة به من نفسها ، ويحول بينها وبين وسوسة الشيطان، فلا تتهمه باتخاذ الأخدان ، ويكون أعون له على إلزامها القرار في البيت وتحري رضاه في الخروج عند الحاجة اليه . وان كثيراً من الرجال ليشاقون النساء

بالشادّة في الخروج حتى يتقنوا بهن الريبة فيوقعوهن فيها ومنهم الذين يسلسون لهن أو يلقون حبالهن على غواربهن فيسرحن ويمرحن ويتبرجن تبرج الجاهلية الاولى حتى يكون البيت في نظرهن كالسجن وان ملل المرأة من البيت وكراهتها له كملل التاجر من محل تجارته والقاضي من محكمته والأمير من امارته، وكراهة كل عامل من عمله سبب للضياع ومعول للخراب

ومن المودة بين الزوجين أن لا تخرج المرأة من دارها الا باذن الرجل ورضاه وأن لا تكلفه من النفقة والزينة فوق ما يليق بحاله في الثروة وقد مضت التجارب بأن العهد الى النساء بالنفقة يبصّرهن على الاقتصاد ويغريهن بالتوفير. وارجع فى سائر ما يطلب من المرأة لزوجها وولدها في المقالات السابقة فالنهوض بها مع الغبطة والسرور هو أثر المودة المطلوبة

لو لم تكن المودة بين عشير في الزوجين مما يقصد بالزواج قصداً مستقلاً لكانت مما يقصد بالتبع لتوثيق الرابطة الزوجية بين الزوجين فان احترام كل منهما لقرابة الآخر مزيد فى احترامه له ولعل الذين يختارون الازواج لمكان البيوت والعشائر أكثر من الذين يختارون لمجرد الاستحسان الذاتي ولا تكاد تجد في العناصر الكريمة من لا يبالي بالمنبت وانما أولئك تحوت الناس وعبيد الشهوات

ان المشاكلة بين الزوجين فى السجايا والعادات كافية مع سكون الزوجية لتحقق المودة بينهما ولكن مكان عشيرتيهما قد يفسد مودة بينهما اذا كانت غير مرضية لهم وقد يشفع لما ينقصهما من سكون النفس ومودة القلب لحلول عاطفة الاحترام القومي محل عاطفة المشاكلة في بعض الطباع فان لم يأت احترام العشيرة بالمودة فهو لا يقصر عن الاتيان بالتودد وحسن المعاشرة

سل قضاة المحاكم الشرعية ووكلاء الدعاوي فيها يخبروك عن أرباب التخاصم من الأزواج ان أكثرهم من الشذاذ الذين ليس لهم عشائر معروفة أو من البيوت التي أفسدها الترف والتربية السوءى حتى كان أهل الزوجين هم الذين يحلون ميثاق الزوجية بينهما ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً بمضارة الرجل بامرأته والمرأة ببعلها باسم المحافظة على الحقوق ورعاية الشرف

وما الشرف الا في الوفاق الوثام، والوداد والالتئام،

يقع مثل هذا مع فساد الفطرة من الذين عزموا عقدة المصاهرة على رغبة وتخير فما بال أولئك الذين يعتون الي هذا العقد بوسائل الرهبة أوالحيلة أو يهجمون على البيوت فيأتونها من ظهورها لا من أبوابها، ويمزقون ستارها ويهتكون حجابها، وينتزعون الخرائد من أكنافها، والفرائد من أصدافها، ويفرقون بين الاولاد والوالدين، ويوقعون العداوة والبغضاء بين الاقربين، ماذا يكون أثرهم في البيوت التي تتكون منها الأمة وفي الأمة التي تتكون من البيوت؟ لا يغيب عن عاقل ان شرهم مستطير، وان ما يفعلونه فتنة في الأرض وفساد كبير. (الكلام بقية)

# فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة، اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل ان يبين لنا اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا. ولمن يقضي على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكره به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

## تزويج الشريفة بغير شريف وفضل أهل البيت

(س٢٩) مستفيد في (سنغافوره) سيدي هل هذه الفتوى (المذكورة أدناه) صحيحة ويجوز العمل بما فيها أم الاصح خلافها أفيدونا لازلتم خير خلف لخير سلف عن جوهر الاسلامية وأرجو من حضرتكم الكلام عنها في المنار وهي:

ما قولكم في من يستحل تزويج الشرائف بمن ليسوا بأشراف بل لو كان بعضهم يزعم أنه هاشمي أومطلبي أومن بقية قريش فهل يصح تزويجهم بالشرائف أولا

### الجواب والله أعلم بالصواب

اعلم أن مراعاة الكفاءة في النكاح واجبة وهي في النسب على أربعة درجات (كذا) الاولى العرب لا يكافئهم غيرهم من العجم الثانية قريش لا يكافئهم غيرهم من بقية العرب الثالثة بنو هاشم وبنو المطلب لا يكافئهم غيرهم من بقية قريش الرابعة أولاد فاطمة الزهراء بنو الحسن والحسين رضي الله عنهم لا يكافئهم غيرهم من بني